قصيدة الرثاء في الشعر العربي
(دراسة تحليلية نقدية)

د. منى محمد عبدالله أبوهملاء

أستاذ الأدب والنقد المساعد-قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة الملك فيصل

ملخص:

الرثاء غرض أصيل من أعرق أغراض الشعر العربي، برزت فيه أرق أحاسيس المبدع العربي، وأفضل صفات المرثي، فأطلت مراثي الشعراء لألئ وضاحة، تشف عن كل راق وجميل، رقي في الراثي والمرثيّ والمرثيّة نفسها.

وبدا تنوع مجالات الرثاء فكان منها رثاء زوج وكان منها رثاء أخ أو أخت، ورثاء مدينة، وأيضا هناك طوائف أخرى من رثاء الحيوانات وغيرها.

ولقد استهدف البحث الكشف عن الجوانب الجمالية والإبداعية في صنوف الرثاء تلك، وكيف كان هذا الغرض سببا لمعرفة شعراء أجلاء، لم تتفتق شاعريتهم عن غيره، وآخرين لم يصلنا منهم شعر يعرف قد خرج عن هذا الغرض، بدءًا من الشعر الجاهلي ومرورا بالإسلامي والأموي ووصولا بالعباسي.

وبرز حسن صنيع الإنسان وحسن خلقه في هذا الغرض أكثر منه في غرض الوصف والمدح، لأنه الأكثر صدقا، وأكثر بقاء، وإن قد جاء غرض الرثاء في شعر المجاملات، وفي مضمار تملق بعض الأشخاص لتحقيق مآرب دنيوية زائلة، إلا أنه جاء صادق وخالص من ذلك في مجمله، وكان الأخير الأكثر بقاءً، والأعلى جمالا، والأفضل شفافية، وتجلى الأول مقيتا بغيضا تمجه الطباع السوية، والنفوس النقية.

الكلمات المفتاحية:

التراث الأدبي -الأدب الاجتماعي- الشعر الذاتي- أغراض الشعر- الرثاء - صدق العاطفة.

Abstract:

Lamentation is an authentic purpose of one of the oldest purposes of Arabic poetry. The most delicate feelings of the Arab creator emerged, and the best qualities of the seductive.

The diversity of the areas of lamentation appeared to be the lament of the husband, including the lament of the brothers, and the lamentations of the cities, and there are also other sects of lamentations of animals and others.

The purpose of the research was to uncover the aesthetic and creative aspects of these types of lamentations, and how this was the reason for the knowledge of poets who were evacuated, whose poetry did not diverge from others, and others whom we did not know about.

The good deeds of man and his good work have emerged in this purpose, rather than in the purpose of description and praise, because it is the more truthful, and the more the survival, and if the purpose of lamentation came in the poetry of courtesies, and in the field of flattering some people to achieve ephemeral worldly goals, And the latter was the most enduring, the most beautiful, and the most transparent, and the first manifested the abhorrent of the normal temperament, and the pure souls.

key words:

Literary heritage - social literature - poetry self - purposes poetry - Lament - the truth of passion.

مقدمة:

باسم الله أرحم الراحمين، والصلاة والسلام على الرسول الرحيم الذي أرسله ربه؛ رحمة بالناس كافة وللعالمين، وبعد:

فإن الرثاء أحد فنون الشعر العربي البارزة، بل إنه ليتصدرها من حيث صدق التجربة، وحرارة التعبير، ودقة التصوير. ويحتفظ أدبنا العربي بتراث ضخم من المراثي منذ الجاهلية إلى يومنا الحاضر، فأطلت مراثي الشعراء لألئ وضاحة، تشف عن كل راقٍ ورائق.. رقيا نجده في الراثي، والمرثيّ، والمرثيّة نفسها.

وبدا تنوع مجالات الرثاء؛ فكان منها رثاء الأزواج، وكان منها رثاء الإخوة، وكان منها رثاء الأبناء، وكان منها رثاء المدن، وأيضا هناك طوائف أخرى من رثاء الحيوانات وغيرها.

ولقد قصد البحث الكشف عن الجوانب الجمالية والإبداعية في صنوف الرثاء تلك، وكيف كان هذا الغرض سببا لمعرفة شعراء أجلاء، لم تتفتق شاعريتهم عن غيره، وآخرين لم يصلنا منهم شعر يعرف قد خرج عن هذا الغرض، بدءًا من الشعر الجاهلي ومرورا بالإسلامي والأموي ووصولا بالعباسي. واستهدف أيضا المفاضلة بين صنوف الرثاء من جهة، وأشهر المراثي من جهة أخرى.

وسطع جليا حُسن صنيع الإنسان وحسن خلقه في هذا الغرض أكثر منه في غرض الوصف والمدح؛ لأنه الأكثر صدقا، وأكثر بقاء، وإن قد جاء غرض الرثاء في شعر المجاملات، وفي مضمار تملق بعض الأشخاص؛ تحقيقا لمآرب دنيوية زائلة، إلا أنه جاء صادق وخالص من ذلك في مجمله، وكان الأخير الأكثر بقاءً، والأعلى جمالا، والأفضل شفافية، وتجلى الأول مقيتا بغيضا تمجه الطباع السوية، والنفوس النقية.

واقتضت طبيعة البحث أن يأتي متسربلا بالمنهج التحليلي النقدي؛ لكشف أدق خلجات النفس البشرية في أعظم مصائب الإنسان، وهي فقده مَن عزّ عليه، وشق على نفسه فراقه، فاشتاق له أعظم الاشتياق، ولربما تمنى لو يفارق الحياة بملاذها؛ ليجتمع معه؛ ويسامره كما كان يأنس به في الدنيا.

وطالعنا البحث في مدخل وخمسة مباحث، المبحث الأول: رثاء الأزواج، والمبحث الثاني: رثاء الإخوة، والمبحث الثالث: رثاء الأبناء، والمبحث الرابع: رثاء المدن، والمبحث الخامس: ألوان أخرى من الرثاء.

وختاما يأمل الباحث أن يكون قد وفق إلى ما سعى إليه، وأن يفتح هذ البحث الباب لدراسات أخرى، تنفض الغبار عن تراثنا العظيم، وتعكس رونقه وجماله، والله الموفق والمستعان.

مدخل:

الرثاء موضوع شعري قديم، رافق الإنسان مذ حياته الأولى، واتخذه الشعراء وسيلة للتعبير عن حزنهم وأَلَمِهم حين الفقد، وتصوير لواعج الفراق عمن يحبون؛ لذا استأهل الرثاء منزلة رفيعة في الأدب العربي بشقيه: النثر والشعر؛ إذ لا يخلو دار من عزيز فقد، ورغم تعدد صور الموت وأنواعه، فهناك من يموت إثر نوبة قلبية مفاجئة، وهناك من يموت في حادث مروري مروع، وهناك من يموت على فراشه وهو معافى، وهناك من يموت بعد سنواتٍ، صارع فيها المرض، يموت ويترك حسرة، تتوقد في قلوب الأهل، والأحباب، والأخلاء.

والرثاء أجود ما لمعت به قرائع العرب، "فأحسن الشعر ما خلط مدحا بتفجع، واشتكاء بفضيلة؛ لأنه يجمع التوجع الموجع تفرجا، والمدح البارع اعتذارا من إفراط التفجع باستحقاق المرثي.، وإذا وقع نظم ذلك بكلام صحيح ولهجة معربة ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين."[١]

ولقد امتلأ الشعر العربي بالحديث عن المصير والجهل به، والتساؤل عن الأمم البائدة التي انطوت صفحاتها وكأنها لم تكن، وكانت هناك محاولات حثيثة لجمع مراثي العرب،[٢] ووقف الشعراء عند فكرة الحياة والموت، والدهر وما يرمي به الناس، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة، وكثيرا يذكرون من سبقهم إليه، متخذين من ذلك عظتهم، فيقول قس بن ساعدة:

في الذاهبين الأولـ ـين من الشعوب لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجعن قومي إلـ ـيّ ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالـ ـة حيث صار القوم صائر[٣]

---

[١] التعازي والمراثي، المبرد، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م. ص ١٩

[٢] يراجع: رياض الأدب في مراثي شواعر العرب: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٧.

[٣] تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي): د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، (د.ت)، ص٨٧.

فالموت انقطاع كامل عن الحياة، وهو المصير الذي لا يدفع، ولا يملك المرء حيلة لوقفه، فهو مسلوب الإرادة، يناظر من أحبه يحتضر مودعا الحياة ومن فيها، ولا يبدي حراكا، فتجري على لسانه تساؤلات يخاطب فيها الدهر:

يـــا دهـــر، قـــد أكثـــرت فجعتنـــا بســـراتنا ووقـــرت فـــي العظـــم
وســـلبتنا مـــا لســـت معقبنـــا يـــا دهـــر، مـــا أنصـــفت فـــي الحكـــم

وقد يكون من أقدم صور الرثاء تلك النقوش التي وجدت على قبور الأقيال والأذواء في اليمن والحيرة؛ إذ يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليدا لذكراهم وتمجيدا لأعمالهم.[٤]

ولقد يعجب البحث من ابن رشيق حين يوازن بين الرثاء والمديح بقوله: "ليس بين الرثاء والمدح فرق إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به ميت مثل " كان " أو " عدمنا به كيت وكيت " وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت".[٥]

ومكمن العجب في تجاهله للعاطفة التي تثير الشاعر، فالمسألة لا تنحصر في ألفاظ شكلية، ولا تصاوير تكرارية رتيبة، بل هي تجربة تحمل مرارة الشعور، وهول المصيبة التي تسببها فقد عزيز، وغالٍ من أخٍ، أو ابن، أو صديق، أو أخت، أو والد، ولربما قصد ابن رشيق التقاء المديح بالرثاء في تعداد مآثر المتوفى وذكر مناقبه وصفاته؛ إذ نجده قد استدرك بقوله: وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع، بين الحسرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا كما قال النابغة في حصن بن حذيفة بن بدر:

يقولـــون حصـــن ثـــم تـــأبى نفوســـهم وكيـــف بحصـــن والجبـــال جنـــوح
ولـــم تلفـــظ المـــوتى القبـــور ولـــم تـــزل نجـــوم الســـماء والأديـــم صـــحيح
فعمـــا قليـــل ثـــم جـــاء نعـــيه فظـــل نـــدى الحـــي وهـــو ينـــوح[٦]

ويذكر ابن رشيق أن من عادة القدماء أن يضربوا الأمثال في المراثي بالملوك الأعزة، والأمم السالفة والوعول الممتنعة في قُلَل الجبال (قممها)، والأسود الخادرة في الغياض، وبحمر الوحش

---

[٤] فنون الأدب العربي (٢) الفن الغنائي الرثاء: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ص١٢

[٥] العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ج٢ ص ١٤٧.

[٦] المصدر السابق:ص١٤٧.

المتصرفة بين القفار والنسور والعقبان والحيات لبأسها وطول أعمارها، وذلك في أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر.[٧]

المبحث الأول: رثاء الأزواج.

لقد اهتم النساء والرجال بالرثاء، بل كانت النساء أقدر على التعبير عن عاطفة الحزن والفقد، فالمرأة بطبيعتها الأنثوية أدق حسا، وأغزر شعورا من الرجال الذين يأنفون أن يبرزوا بكاءهم.

ويلتفت ابن رشيق لذلك، وهو الناقد الواعي فيقول عن عاطفة النساء: "والنساء أشجى الناس قلوبا عند المصيبة، وأشدهم جزعا على هالك لما ركب الله Y في طبعهن من الخور وضعف العزيمة".[٨]

ولعل أقدم النصوص التي وصلت إلينا من الشعر الجاهلي، بل لعلها أقدم نص نسائي لشاعرة عربية وصل إلينا هو أبيات جليلة البكرية، التي تتراءى كقطعة أثرية نادرة، استطاعت الشاعرة أن تعكس فيها طبيعتها الأنثوية في صدق وإخلاص، وأن ترسم صورة معبرة عن مشاعر زوجة، فقدَت زوجها في ظروف بالغة الحساسية؛ إذ قتل أخوها زوجها، واستعد أخو زوجها لقتال قومها، ودخلت جليلة في صراع [بين شقى الرحى].[٩]

تخاطب جليلة نساء القبيلة اللاتي لمنها بهذا النداء الذي دعت إليه حالتها:

يـــا ابنـــة الأقـــوام إن لمـــت فـــلا تعجلـــي بـــاللوم حتـــى تســـألي
فـــإذا أنـــت تبينـــت الـــذي يوجـــب اللـــوم فلـــومي واعـــذلي
إن تكـــن أخـــت امـــرئ ليمـــت علـــى جـــزع منهـــا عليـــه فـــافعلي[١٠]

ثم تقف بجرأة وصراحة؛ لتبين موقفها مما فعل جساس فتقول:

جـــل عنـــدي فعـــل جســـاس فيـــا حســـرتي عمـــا انجلـــى أو ينجلـــي

فإن ما فعله جساس لأمر جليل عظيم آلمها أشد الألم، وأخلف حسرة تتجدد فهي تعيش عذابين، عذاب بقتل زوجها، وآخر في الانتظار.

---

[٧] المصدر السابق:ص١٥٠.

[٨] المصدر السابق:ص١٥٣.

[٩] الروائع من الأدب العربي، العصر الجاهلي: إشراف: د. يوسف خليف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص٨٨ .

[١٠] تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٥م. ص٥٠

فما أقسى تلك المعاناة وما أمرّها؟ وتعبر بصدق عن منزلة زوجها وأخيها في حياتها، تلك المنزلة التي تضاهي منزلة "العين" والعين أنفس ما يمتلكه الإنسان؛ فبها يرى الدنيا ويدرك الأشياء ويميز بينها؛ لذا اشتد الصراع، واحتدم في نفسها:

لو بعين فقئت عيني سوى أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما تحمل الأم أذى ما تفتل

وتقدم جليلة لنا تبريرا لمنزلة كليهما في نفسها وحياتها، فها هي تؤكد على أهلية كليب وحسن شيمه، وكأنها تقنعنا بأنه حقيق ببكائها:

أيتم المجد كليب وحده واستوى العالي معا بالأسفل
من لحكم الناس في حيرتهم وقرى الأضياف يوم البزل
ولإصلاح وإفساد معا في صدى الرمح وري المنصل

وتعقد مقارنة واعية، ضمت فنية وإبداعا حين تتحدث عن بيتها القديم والمستحدث، وهي ترمز بالبيت القديم لأخيها، والبيت المستحدث لزوجها:

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته وانثنى في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كثب رمية المصمي به المستأصل

فإنها صورة غاية في الإتقان للسهم الذي لم يخطئها.

وتلتفت جليلة مرة أخرى إلى النساء اللاتي لمنها بهذا النداء الجميل:

يا نسائي دونكن اليوم قد خصني الدهر برزء معضل
خصني قتل كليب بلظى من ورائي ولظى مستقبلي

وإن قتل كليب مصيبة عظيمة خصها الدهر بها دون النساء، ولم ينته حزنها عند هذا، بل تنتظر اللظى الذي يستقبلها بقتل أخيها بعد لظى قتل زوجها.. إن معاناتها تفوق معاناة كل النساء:

ليس من يبكي ليومين كمن إنما يبكي ليوم ينجلي

فتجربةُ جليلةَ تجربةٌ فريدة؛ لأنها تعيش مأساتين في وقت واحد؛ لذا كان حزنها مريرا، وعاطفتها جياشة، فاليومان اللذان تبكي منهما هما يوم مقتل زوجها الذي مضى وانكشف أمره، ويوم مقتل أخيها الذي تنتظره في قلق وخوف:

يشـــتفي المـــدرك بالثـــأر وفـــي دركـــي ثـــأري ثكـــل المـــثكل

وتبلغ المأساة ذروتها في هذا البيت، فمن يدرك ثأره تهدأ نفسه، ويشتفي من الأحزان، أما جليلة ففي إدراكها ثأرها ثكل جديد لها؛ لأن ثأرها هو أخوها.لذلك تتمنى لو كان الدم الذي يطالبون به لثأرهم دمها، فتبذله بدون تردد:

ليتـــه كـــان دمـــي فاحتلبـــوا بـــدلا منـــه دمـــا مـــن أكحـــلي

فإنها في نظر الناس قاتلة، وفي واقع الأمر هي مقتولة، وتتمنى أن يريحها الله من هذا الصراع النفسي الشديد:

إنـــني قاتلـــة مقتولـــة ولعـــل الله أن يرتـــاح لـــي

ويسجل ابن رشيق إعجابه بقصيدة جليلة: "ما أشجى لفظها، وأظهر الفجيعة فيه، وكيف يثير كوامن الأشجان، ويقدح شرر النيران"[١١] ولا يخفى على المتأمل قوة أسلوب جليلة الشعري، وقدرتها على إحداث المقارنة في تصوير صراعها مما جعل القصيدة تتمتع بإحكام شديد في بنائها، وبلغة يسيرة، فقد تستخدم الطباق تارة، والتقابل تارة أخرى، وتستعين بالنداء، والاستفهام البلاغي الذي يشي بحالة نفسية متوترة لا تملك لها حلا.

وقد يرثي الزوج زوجته كما فعل محمد بن عبدالملك؛ إذ يصور أثر فراق الأم على ولدها بأسلوب واقعي يكاد يلمس جرح المكلوم:

ألا مـــن رأى الطفـــل المفـــارق أمـــه بعيـــد الكـــرى عيـــناه تبتـــدران
رأى كـــل أم وابنهـــا غيـــر أمـــه يبيتـــان تحـــت الليـــل ينتحبـــان
وبـــات وحيـــدا فـــي الفـــراش تحثـــه بلابـــل قـــلب دائـــم الخفقـــان

ويقارن بين حزنه وهو الرجل الجلد وبين طفله الصغير الذي لا يدرك حقيقة الحياة والموت بعد:

فهبنـــي عزمـــت الصـــبر عنهـــا لأننـــي جليـــد فمـــن بالصـــبر لابـــن ثمـــان؟
ضـــعيف القـــوى لا يعـــرف الأجـــر حســـبة ولا يأتســـي بالنـــاس فـــي الحـــدثان
ألا مـــن أمنيـــه المنـــى فـــأعده لعـــثرة أيـــامي وصـــرف زمـــاني
ألا مـــن إذا مـــا جئـــت أكـــرم مجلســـي وإن غبـــت عنـــه حـــاطني ورعـــاني
فلـــم أر كالأقـــدار كيـــف تصـــيبني ولا مثـــل هـــذا الـــدهر كيـــف رمـــاني؟

---

[١١] العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ص ١٥٣.

لقد جعل ابن رشيق هذه الأبيات من أشجى الشعر في الرثاء، بل هذه الطريق هي الغاية التي يجري حذاق الشعراء إليها، ويعتمدون عليها في الرثاء.[١٢]

المبحث الثاني: رثاء الإخوة.

ولا نستطيع المضي قدما في الحديث عن الرثاء دون الوقوف على شعر شاعرة، نالت شهرة واسعة؛ لبكائها أخويها في الجاهلية، وأولادها في الإسلام، إنها تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، وقد لقبت بالخنساء تشبيها لها بالبقرة الوحشية في جمال عينيها، تزوجت أولا رواحة بن عبدالعزيز السلمي، فولدت له عبدالله ويكنى بأبي شجرة، ثم مرداس بن أبي عامر السلمي فولدت له يزيد ومعاوية وعمرا وعمرة.[١٣]

فأسلمت الخنساء مع قومها بني سليم، وشاركت المسلمين في فتح بلاد فارس ومعها أولادها الأربعة، فقتل أولادها في وقعة القادسية سنة ١٦ هـ (٦٣٨ م) وقد قالت حين سمعت خبر مقتلهم: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة".

وتعد الخنساء من شواعر العرب البارزات والمعترف لهن بالتقدم؛ فقد أجمع الشعراء ورواة الشعر القدماء على أنه لم تكن امرأة قبلها ولا بعدها أشعر منها في الرثاء، فهي في الطبقة الثانية.[١٤]

ويروى لبعض فحول شعراء العرب أحكام نقديّة، تتضمّنُ إعجابا شديدا بشعرها، ومن هؤلاء نذكر قولا جاء به جرير، حين سئل عن أشعر الناس فقال: أنا أشعر الشعراء، لولا هذه الخبيثة (يقصد الخنساء).

وأمّا بشّارُ بن برد فقال: ما قالت امرأة الشعرَ إلاّ وتبيّنَ لي الضعفُ في شعرها، فسألوه عن الخنساء، أهيَ كذلك؟ فإذا به يقول: الخنساءُ فوق الرجال. وقال المبرّدُ : إنّ أشعر شواعر العرب: الخنساءُ وليلى الأخيليّة.[١٥]

---

[١٢] المصدر السابق: ص ١٥٦، ١٥٧.

[١٣] طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص٤٥

[١٤] ديوان الخنساء: دار المعرفة ، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

[١٥] الكامل في الأدب: العباس محمد أبو يزيد المبرد، تحقيق: د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (د.ت). ج١/ ٣٦٥

فلقد حزنت الخنساء حزنا شديدا على أخويها معاوية وصخر حين قتلا، وقد علق قلبها بصخر، وأحبته حبا ملأ عليها فؤادها، فجاء شعرها واصفا لحالها بعد فراقهما.

قـــذى بعينـــك أم بـــالعين عـــوار أم ذرفـت إذ خلـت مـن أهلهـا الـدار[١٦]

وهكذا تبدأ الخنساء بمونولوج، يسرّي عن نفسها هذا الحزن العظيم، فذكراه تشعل ألم الفراق؛ فتنهمر العبرات فيضا مدرارا:

كـــأن عينـــي لـــذكراه إذا خطـــرت فـــيض يســـيل علـــى الخـــدين مـــدرار

فلقد جعلت الخنساء العبرات هي الأخرى تبكي صخرا، وفي هذا تجسيد حي لمعاناة الفقد:

تبكـــي خنـــاس فمـــا تنفـــك مـــا عمـــرت لهـــا عليـــه رنـــين وهـــي مفـــتار

حقا، مهما بكت على صخر فهي مقصرة عن إيفائه حقه:

تبكـــي خنـــاس علـــى صـــخر وحـــق لهـــا إذ رابـــه الـــدهر، إن الـــدهر ضـــرار

وتسلمها تأملاتها، وحرقة الفراق إلى هذه الرؤية التي تلجأ إليها لتهدئة روعها:

لا بـــد مـــن ميتـــة فـــي صـــرفها عبـــر والـــدهر فـــي صـــرفه حـــول وأطـــوار

وتنتقل بعد ذلك إلى مديح صخر بذكر مناقبه وصفاته، وكأنها بذلك ترسم صورة مقنعة لحزنها عليه:

قـــد كـــان فـــيكم أبـــو عمـــرو يســـودكم نعـــم المعمـــم للـــداعين نصـــار
صـــلب النحيـــزة وهـــاب إذا منعـــوا وفـــي الحـــروب جـــريء الصـــدر مهصـــار

فلقد كان صخرا سيد قومه، وقد استأهل هذا لنصرته لهم، وصلابة طبيعته، تجده ذا هبات وقت امتناع الناس، وذا جرأة يدق الأعناق في الحروب، فهو في جميع أحواله رجل فاعل في قبيلته، إيجابي مع أفراد مجتمعه.

وقد تُكررُ الخنساء مآثر صخر، وتعرضها في صورة جديدة مثلما قدمته هذه الأبيات الشهيرة:

وإن صـــــخرا لوالينـــــا وســـــيدنا وإن صـــــخرا إذا نشـــــتوا لنحـــــار

---

[١٦] ديوان الخنساء: دار صادر، بيروت، (د.ط) . (د. ت).

وإن صـــــخرا لمقـــــدام إذا ركبـــــوا وإن صـــــخرا إذا جـــــاعوا لعقـــــار
وإن صـــــخرا لتـــــأتم الهـــــداة بـــــه كأنـــــه علـــــم فـــــي رأســـــه نـــــار

ولا يخفى استخدام الخنساء (إن) للتوكيد اللفظي الذي يقتضي بالضرورة توكيدا معنويا. وانطوت سيرة صخر على خصال حميدة كثيرة تشمل الناحيتين: الناحية المعنوية الخُلقية، والناحية الخِلقية، فكأنه جمع من الفضائل ما استحق الإشادة:

جلـــد جميـــل المحيـــا كامـــل ورع وللحـــروب غـــداة الـــروع مســـعار
حـــمال ألويـــة هبـــاط أوديـــة شـــهاد أنديـــة للـــجيش جـــرار
نحـــار راغيـــة ملجـــاء طاغيـــة فكـــاك عانيـــة للعظـــم جبـــار

ومن الصفات الرائعة التي كان يتحلى بها رعاية حقوق الجار:

لـــم تـــره جـــارة يمشـــي بســـاحتها لريبـــة حـــين يخلـــي بيتـــه الجـــار

ومنها أيضا الكرم:

ولا تـــراه ومـــا فـــي البيـــت يأكـــله لكنـــه بـــارز بالصـــحن مهمـــار
ومطعـــم القـــوم شـــحما عنـــد مســـغبهم وفـــي الجـــدوب كـــريم الجـــد ميســـار

وما أروع الخنساء حين تعبر عن هذه الوشيجة الروحية! فها هي تقول:

قـــد كـــان خالصـــتي مـــن كـــل ذي نســـب فقـــد أصـــيب فمـــا للعـــيش أوطـــار

وفي آخر القصيدة تستحث الخنساء الفقير على البكاء والرفقة التي ضلت طريقها؛ لأن صخرا هو هاديها إذا اشتدت الظلمة:

ليبكـــــه مقتـــــر أفـــــنى حريبتـــــه دهـــــر وحالفـــــه بـــــؤس وإقتـــــار
ورفقـــــة حـــــار حـــــاديهم بمهـــــلكة كـــــأن ظلمتهـــــا فـــــي الطخيـــــة القـــــار
ألا يمنـــــع القـــــوم إن ســـــألوه خلعتـــــه ولا يجـــــاوزه بالليـــــل مـــــرار

ومما لا شك فيه أن الخنساء ذات اقتدار هائل في وصف عاطفتها بانسيابية، وبساطة تلامس شغاف القلوب، فكأنها تصف لوعة النساء معها رغم تكرارها للمعاني إلا أنه تكرار يعالج لوعة الحزن، ويجسد مرارة الفقد، ولعل استخدامها لصيغ المبالغة يؤكد لنا منحاها.[١٧]

---

[١٧] المستطرف من كل فن مستظرف: الإبشيهي، تحقيق: إبراهيم أمين، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، ص١٢٥

وقد تسقط الخنساء حزنها على الطبيعة؛ فنبهر كيف تعبر عن حالها بهذا الأسلوب العصري، ولعلنا نرد على من اتهم شعراءنا بالتقليد والاتباع في ذلك، فتأمل معي في قصيدة (صخر الجود) ماذا تقول:

تـــذكرت صـــخرا إذ تغنـــت حمامـــة هتـوف علـى غصـن مـن الأيـك موجـع
فظلـــت لهـــا أبكـــي بـــدمع حزينـــة وقـــلبي ممـــا ذكرتنـــي مـــوجع

فحينما تحزن القلوب يتحول طعم الحياة شيئا آخر، مرارة تعلو الوجوه، وقتامة تسيطر على النفس، فما كان يسعدها لم يعد كذلك، بل أصبح كل شيء يذكرها بفقيدها حتى غناء الحمامة أصبح هو الآخر يهيج الحزن والدمع.

تـــذكرني صـــخرا وقـــد حـــال دونـــه صـــفيح وأحجـــار وبيـــداء بلقـــع
أرى الـــدهر يرمـــي مـــا تطـيش ســـهامه ولـــيس لمـــن قـــد غالـــه الـــدهر مرجـــع
فـــإن كـــان صـــخر الجـــود أصـــبح ثاويـــا فقـــد كـــان فـــي الـــدنيا يضـــر وينفـــع

وهذا هو العزاء الذي تستعيض به عما تجده.

ومن الروائع الأدبية في الرثاء للخنساء قصيدة (تأزر بالمجد):

أعينـــــي جـــــودا ولا تجمـــــدا ألا تبكيـــــان لصـــــخر النـــــدى؟

فإنه استفهام بلاغي ترمي به تحضيض عينيها على البكاء، فصخر يستحق من يبكيه:

ألا تبكيـــان الجـــريء الجميـــل ألا تبـــكيان الفتـــى السيـــدا؟
طويـــل النجـــاد رفيـــع العمـــاد ســـاد عشـــيرته أمـــردا
إذا القـــوم مـــدوا بأيـــديهم إلـــى المجـــد مـــد إليـــه يـــدا
فنـــال الـــذي فـــوق أيديـــهم مـــن المجـــد ثـــم مضـــى مصـــعدا
يكلفـــه القـــوم مـــا عـــالهم وإن كـــان أصـــغرهم مولـــدا
تـــرى المجـــد يهـــوي إلـــى بيتـــه يـــرى أفضـــل الكســـب أن يحمـــدا
وإن ذكـــر المجـــد ألفيتـــه تـــأزر بالمجـــد ثـــم ارتـــدى[١٨]

فما أروع هذه القصيدة! وما أدق إحساسها فيها!؛ إذ تناولت الخنساء صفات صخر الجسمية، فهو طويل القامة قادر على حمل السيف، وهو ذو سيادة وشرف تليد ورسمت لصخر صورة

[١٨] أحلى ما قيل في الرثاء: إيمان البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م. ص٩٨

جميلة يتسابق القوم فيها للوصول إلى المجد، فيسبقهم وينال الذي فوق أيديهم، بل ويتفوق عليهم، ولا يفتأ في حالة صعود لا ينتهي، إنه يتجشم مسؤولية جسيمة إزاء قومه رغم صغر سنه.

وأما الصورة الثانية للمجد فهي تشبيهه بالإنسان الذي يهوي؛ لأن صخرا موطن المجد وضالته التي لا تخطيء، ولا يتأزر صخر بالمجد فحسب، بل يرتديه. قد تكرر الخنساء بعض المعاني إلا أنها تضيف جديدا كلما رثت وبكت، وخطابها لعينيها، واستحثاثها لهما للبكاء أصبح رسما تستهل بها قصائدها، ولكن تقدم كل مرة فكرة طريفة مثل قصيدة (أسائل كل والهة):

ألا يـــا عـــين ويحـــك أســـعديني لريـــب الـــدهر والـــزمن العضـــوض
ولا تبقـــي دموعـــا بعـــد صخـــر فقـــد كلفـــت دهـــرك أن تـــفيضي
ففيضـــي بالـــدموع علـــى كـــريم رمتـــه الحادثـــات ولا تغـــيضي
فقـــد أصـــبحت بعـــد فتـــى سليـــم أفـــرج هـــم صـــدري بالقـــريض
أســـائل كـــل والهـــة هـــبول براهـــا الـــدهر كـــالعظم المهـــيض

ولن تتوقف الخنساء عن البكاء ما حييت:

وســـوف أبكيـــك مـــا ناحـــت مطوقـــة ومـــا أضـــاءت نجـــوم الليـــل للســـاري[١٩]

ويتعالى الشعور بالحزن في نفسها، وتفقد الدنيا نضارتها وجمالها بعد صخر، فتشرق لنا برؤية فتقتها المعاناة، وأنضجها الحرمان في هذا العزاء الخالص الجميل في قصيدة (كل بيت مهدوم):

كـــل امـــرئ بأثـــافي الـــدهر مرجـــوم وكـــل بيـــت طويـــل الســـمك مـــهدوم
لا ســـوقة مـــنهم يـــبقى ولا ملـــك ممـــن تملكـــه الأحـــرار والـــروم
إن الحـــوادث لا يبقـــى لنائبـــها إلا الإلـــه وراســـي الأصـــل معـــلوم

والخنساء موهبة فنية تتدفق دون عناء، ولا تكلف، تفيض إحساسا ورقة وتمنح اللفظة قدرها من صدق التعبير، عفوية التصوير، فتبني بذلك علوقا بالقلب والفكر وهو ما يجعل الباحث يؤكد على مقدرة شعرها على العطاء السخي لمن أراد تأمله، وسبر أغواره.

وقد رأى ابن رشيق أن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلا أو امرأة، ولقد ذكر العلة في هذا بقوله: "لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات، ألا ترى ما صنعوا بأبي الطيب وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون في قوله يذكر أم سيف الدولة:

---

[١٩] العمدة: ص١٥٤.

صـــــــلاة الله خالقنـــــــا حنـــــــوط علـــــى الوجـــــه المـــــكفن بالجمـــــال

فقالوا: ما له ولهذه العجوز يصف جمالها؟ وقال الصاحب بن عباد: استعارة حداد في عرس، فإن كان أراد الصاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظلم وتعسف، وإن كان أراد استعارة الكفن بجمال العجوز فقد اعترض في موضع اعتراض إلى مواضع كثيرة في هذه القصيدة "[٢٠]

المبحث الثالث: رثاء الأبناء.

ما ينازع أحد في أن الرثاء من أهم الأغراض الشعرية، وأشدها وقعاً في النفس، حتى قال فيه أبو عبيدة معمر بن المثنى: "إنه أهم مناطق الشعر". وقال فيه المبرد: "وهو أكثر ما تكلم به الناس،؛لأنه لم يَعْدُ أحد من مصيبته بحميم، وذلك قضاء الله على خلقه. إما متعزياً، وإما معزياً، وإما متصبراً محتسباً، وقال أبو الحسن المدائني: "كانت بنو أمية لا تقبل الراوية إلا أن يكون راوية للمراثي. قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنها تدل على مكارم الأخلاق!".

وقد سئل أعرابي: "ما أجودُ الشعرِ عندكم؟ قال: ما رثينا به آباءنا وأولادنا، ذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق"، والحق أننا لا نكاد نجد في الشعر أصدق عاطفة، وأعمق أثراً من بكاء الشعراء على أنفسهم، حين يحسون دبيب الموت في أوصالهم، أو من بكائهم على أولادهم، وهم فلذات أكبادهم، ومهوى أفئدتهم، ومصدر جاههم.

وقد برع ابن الرومي في رثاء الأبناء؛ إذ نجده ينظم قصيدة رثائية في ابنه محمد ـ وهو أوسط أبنائه ـ في العصر العباسي الثاني لم تزل تحتفظ بحرارة الشعور، واتقاد العاطفة إلى عصرنا الحديث ، تجاوز فيها ابن الرومي محدودية الفكر، وضآلة الرؤية إلى أفق رحب يلتقي فيه مع كل فاقد، ويؤاسي كل جريح.

وقد نالت قصيدته من النقاد اهتماما كبيرا؛ لتميزها، والنقد تقييم للعمل الأدبي، وتفسير لكثير من الزوايا المخفية فيه بل النقد هو إبداع المبدع، وهو عملية شاقة وعسيرة؛ لأنها تخلو من الاختيار وتجعل الناقد أمام العمل وجها لوجه، يسافر مع الكلمة، ويعيش إحساس صاحبها؛ ويجلو معايير الجمال والقبح فيها، ويرتفع بمستوى الأداء اللغوي والتصويري؛ حتى يوصلنا إلى نشوة المعرفة والصدق في أحاسيسنا ومدركاتنا، إن النقد صورة حية لدراسة الواقع وتقبله بشكل فني راقٍ، بل لعل المبدع نفسه لم يفطن لما قد يراه الناقد إبان انتفاضة الإبداع لديه، وقد أشار إلى هذا المتنبي حين قال:

---

[٢٠] المصدر السابق: الصفحة نفسها.

أنـــام مـــلء جفـــوني عـــن شـــواردها ويســـــهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــم

فالنقد إضافة للعمل، بل هو إثراء وتوجيه نعيش من خلاله العمل مرتين، المرة الأولى حين يبدعه صاحبه، والمرة الثانية حين يتناوله ناقد متمكن مثل د. محمد النويهي، مما يقودنا إلى المتعة الفنية الخالصة التي تستروح النفس في ظلالها، وتخرج مكنوناتها، فتخف حدة توترها وقلقها، وتستكين جوارحها فتأنس بعد وحشة، وتأمن بعد خوف حينما يتعالى إحساس المشاركة مع الآخرين ومما لا مراء فيه إن ابن الرومي شاعر مثقف بثقافات عصره المتنوعة، واستطاع باقتدار توظيف هذه الثقافة توظيفا فنيا، أسهم في تميز شعره، وإبداع شاعريته فهو يتناول الرثاء بوعي نافذ لما سبق من التجارب الفنية، وإن تداخل مع غيره فيها إلا أنه صاحب نزعة إنسانية مكنته من التفرد والخصوصية، فامض معي لنتذوق هذا الاقتدار في التحليل والتصوير والاستقصاء:

بكـــاؤكما يشـــفي وإن كـــان لا يجـــدي فجـــودا فقـــد أودي نظيركمـــا عنـــدي[٢١]

فمذ أول لفظة يقابلنا ابن الرومي باعتراف صادق بأن البكاء يخفف الحزن، وشدة الكرب إلا أنه لا ينفع في استرداد ما ذهب، ينظم ابن الرومي هذا البيت يستجدي عينيه للبكاء؛ لأنه بلغ مرحلة عظيمة من الحزن والجوى أذهبت البكاء، فتحجرت المآقي، وجفت الدموع، وهي مرحلة قاسية إذ كلما اشتد الحزن ذهب البكاء كما تقول العرب، وهو وإن كشف لنا عن مبلغ حزنه وألمه فإنه لم ينس أن يبين لنا منزلة من فقد عنده، إنه سوى بين عينيه وبين ابنه محمد مما يدل على نفاسته وعظم مصابه بموته.

ويتصور ابن الرومي بأن الموت اختار ابنه متعمدا في قوله:

ألا قاتـــــل الله المنايـــــا ورمـــــيها مـــن القـــوم حبـــات القلـــوب علـــى عمـــد

واستخدم ابن الرومي "حبات القلوب"؛ إذ تشابه "فلذات الأكباد " وهم الأولاد للدلالة على قربهم الشديد، وعلوق القلب بهم.

تـــوخى حمـــام المـــوت أوســـط صـــبيتي فللـــه كيـــف اختـــار واســـطة العقـــد؟

ويستقصي ابن الرومي الحديث عن الموت، فيجعل له إرادة واختيارا؛ إذ اختار أوسط الصبية وهو محمد، فلله كيف اختاره؟ استفهام لا إجابة له، وما أكثر الاستفهامات البلاغية التي طالما

---

[٢١] ديوان ابن الرومي: جمع وتحقيق: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، (د.ط)، ٢٠٠٢م. ص٦٧

يلجأ إليها المفجوع ليهدأ ثورة الحزن والفجيعة في نفسه، ولعلك تلحظ معي أن صاحب الرزء ضعيف ويكاد يصدق ما يسمعه، بل قد يستسلم لترهات وأقاويل غير منطقية للكآبة التي سادت حياته لفراق من يحب.

ويبرز لنا ابن الرومي منزلة الابن الأوسط من خلال تشبيهه له بالعقد؛ إذ لا يبرز جمال العقد إلا باقترانه بما قبله وبما بعده.

علـى حـين شـمت الخيـر مـن لمحاتـه وآنسـت مـن أفعالـه آيـة الرشـد

وقد سارع ابن الرومي ببيان السن التي كان فيها محمد، وكأنه كان يتوقع منا نسأله إياه، فمحمد بلغ التمييز والمعرفة مما جعل الوالدين يستشعران الخير من لمحاته، بل حتى أفعاله أصبحت توحي بهذا.

ولربما يرى بعض الناس أن في بقية الأولاد سلوة له إلا أن ابن الرومي يرد علينا ردا يبكي كل فاقد، ويلذع كل مرزوء، ردا مقنعا ينضح بالألم، ردا معللا يؤجج بداخلنا لوعة الفراق على من نحب، بل لا أبالغ إذا كتبت أني كلما قرأت هذه الأبيات انهمرت دموعي لصدقها وواقعيتها، فهو عندما عبر ووصف إنما وصف وعبر عن حزني وحزنك وحزن الأم الذي لا ينتهي، فاسمع بشجو قوله:

وأولادنـا مثـل الجـوارح أيـها فقـدناه كـان الفـاجع البـين الفقـد
لكـل مكـان لا يسـد اختلالـه مكـان أخيـه مـن جـزوع ولا جلـد
هـل العـين بعـد السـمع تكفـي مكانـه أم السـمع بعـد العـين يهـدي كمـا تهـدي؟

ولله كيف اهتدى ابن الرومي لهذا التشبيه الفريد؟ فلكل جارحة من جوارحنا وظيفة خاصة، كما لكل ولد أو بنت مذاق خاص ومنزلة خاصة، ولقد تبين لي بعد أن صرت أما بأن مكان الابن إنما هو رهن بصفاته وسلوكه، بل تتشكل مكانته عندي حسب قربه أو بعده مني، ألا ترى معي أنك إذا أردت إنجاز عمل ما، وقد تملكتك الحيرة فيمن تختار ستجد نفسك تختار أحدهم الذي يتسم بالتروي وحسن التصرف، فتقدمه على أخيه لما يحمل من هذه الصفات التي يحتاجها الموقف، وقد فسر د. محمد النويهي بأن لكل ابن من الأبناء لذة ومتعة تختلف عن لذة الآخر ، وهو ما يجعل الوالد ينزع لكثرة الأبناء؛ لأن كل ولد يضيف إلى عاطفته تلذذا جديدا.

ويستقصي ابن الرومي الحديث عن محمد وكأنه يرغب في أن نعيش معه حزنه ولوعته، فيشرح وقائع احتضاره:

طــواه الــردى عنـــي فأضـــحى مــزاره بعيــدا علـــى قــرب قريبـــا علـــى بـــعد

لا يتخذ ابن الرومي الطباق وسيلة من وسائل التعبير المألوفة، بل هو تصوير حي لحجم المعاناة، فانظر إلى الموت كيف طوى محمد كما تطوى الصفحة، بالأمس كان هنا يضحك ويلعب، نعانقه ونقبله، ونتحسس يده ووجهه بضمة نشتم رائحته، واليوم رحل فرحلت معه الألفة والمرح والطفولة الغضة، نتلفت هنا وهناك فلا نجده إلا بين خافق متألم، وعيون أتعبها الفراق والحنين، لقد بُعد محمد فغابت معه آمال معقودة، وأحلام متطاولة فأنجزت المنايا وعيدها، وأخلفت الآمال وعدها، هذا هو ابن الرومي عقلية خصبة تستغل اللفظ فتخضعه للمعنى فيتجلى الشعور في أبهى حلة، وأزهى منظر.

ويغيب ابن الرومي عن نفسه؛ ليتحدث عن محمد فينقلنا معه إلى مشهد، وفاته ولم ينس أبدا أن يخبرنا عن عمر محمد آنذاك:

لقــد قــل بـــين المهـــد واللحـــد لبثـــه فلـم ينس عهد المهد إذ ضم في اللحد

هذا بيت من أشد أبيات القصيدة تأثيرا في النفس كما يقول د. النويهي، لأن ابن الرومي يصف عاطفة من أمر العواطف التي تقترن بموت الطفل، والتي تجعل لموت الطفل شناعة لا تجدها في موت الكبير:

ألـــح عليـــه النـــزف حتـــى أحالـــه إلـى صـفرة الـجادي عـن حمـرة الـورد
وظـــل علـــى الأيـــدي تســـاقط نفســـه ويـذوي كمـا يـذوي القضـيب مـن الرنـد

لقد مات محمد وهو صغير، فالفترة بين مهده ولحده قصيرة لم ينسها، فقد (ألح) عليه النزف، وهذه لفظة قوية تؤكد على تدهور حال محمد؛ إذ بان عليه الشحوب واستحال لونه من حمرة الورد إلى صفرة الزعفران، وما أدق وما أعجب وصف ابن الرومي لتساقط نفس محمد! حتى ليكاد القارئ يسمع أنفاسه بأذني، ونبض قلبه المضطرب:

فيـــا لـــك مـــن نفـــس تســـاقط أنفســـا تســـاقط در مـــن نظـــام بـــلا عـــقد؟

إنه تصوير بالغ الحساسية لحركة الأيدي وحيرة الأهل وشفقتهم على محمد وهو يجابه الموت.

ولا يفتأ الوالد المكلوم من تكرار (العقد)، لكنه عقد غير منظوم، عقد قد انحل من نظامه المتناسق فهوى؟

آه.. آه.. آه.. ما أشد فجيعتك! وما أمر حزنك!

عجبت لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد

ويسارع ابن الرومي فيتهم قلبه بالقسوة، فهذا مشهد (احتضار محمد) لا يجسر عليه. فكيف قلبه لم ينفطر؟

فإنه الصدق الذي ميز فنه ورؤاه، فلا يدعي بأن قلبه انفطر مثل بقية الناس، ولا يبالغ في صدمته لفراقه رغم هذا الحب الذي يسكن جنبات نفسه؛ لأنه قد استسلم وأذعن لقضاء الله.

لعمري لقد حالت بي الحال بعده فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي

ولقد تغير حال الأب بعد فقده لمحمد، فكيف حال محمد بعده، واسمع كيف يصف هذا الحال بعده:

ثكلت سروري كله إذ ثكلته وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد

فلم يعد يجد لذة في حياته بعد محمد، وهو صادق في ذلك كل الصدق، فهو يأكل بدافع الجوع، ويشرب بدافع العطش، وينام بدافع التعب، ويعود بنغمة لطيفة رقيقة، فينادي محمدًا بهذا النداء الخافت الهامس الذي يؤلم فؤادي كما آلم فؤاده:

أريحانة العينين والأنف والحشا ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي؟

ويقول هذا وهو يعلم أنه لا مجيب، فيلجأ إلى محاولة البكاء مرة أخرى:

سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدي

فيقول إذا كنت قد تركتك وحيدا تذهب، فإني أعدك بأني سأبكيك ما أسعفتني عيني، وهو هنا لا يكذب ولا يدعي أنه سيبكيه دائما في كل وقت مدى الحياة ؟ ورغم هذا، فالدموع لا تجدي، لأنك لن تعود، ويترقى بنا ابن الرومي بفنه وشاعريته فيقول:

محمد، ما شيء توهم سلوة لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد

لا عزاء ولا سلوة عن محمد، بل أصبح كل شيء حوله يذكره به حتى أخويه:

أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند

إذا لعبـــا فـــي ملعـــب لـــك لـــذعا فـؤادي بمثـل النـار عـن غيـر مـا قصـد
فمـــا فيهمـــا لـــي ســـلوة بـــل حـــزازة يهيجانهـــا دونـــي وأشـــقى بهـــا وحـــدي

ويعلق د. النويهي على هذه الأبيات تعليقا مدهشا؛ إذ يقول: "ما أظن في شعر ابن الرومي - بل في الشعر العربي كله- ما يفوق هذه الأبيات لا في تعمقها التحليلي البعيد وراء أخفى السرائر الإنسانية، ولا في مصارحتها بهذه السرائر حين تستكشفها وصدق وصفها لها، ولا في قوة استثارتها للمشاركة العاطفية العنيفة في نفس القارئ".[٢٢]

وأنـــت وإن أفـــردت فـــي دار وحشـــة فـإني بـدار الأنـس فـي وحشـة الفـرد

فإنها مقابلة مؤلمة بين دارين [دار الوحشة، ودار الأنس] وشتان بينهما، لكنهما تشتركان في الإفراد والوحدة.

ويخيل إلينا أن القصيدة رغم استقصاء مبدعها لا تنتهي، بل لا يريد هو لها أن تنتهي، فهناك في النفس بقية، وفي الوجدان حزن دفين لا تستوعبه الكلمات ولا تشبعه الآهات؛ لذا لا يملك عندها سوى الدعاء:

عليـــك ســـلام الله منـــي تحيـــة ومـن كـل غيـث صـادق البـرق والرعـد[٢٣]

فهنا يلتقي ابن الرومي مع كل فاقد ومحزون، فيوحد إحساسنا ومعاناتنا، ويفصح عن تجربة إنسانية فريدة تتألق في سماء الكلمة الصادقة، وتضيء زاوية من زوايا النفس الخبيئة التي طالما انتظرنا، وتطلعنا لمن يكشف لنا عنها.

وأما النص التالي فهو لذؤيب الهذلي الذي مات بنوه السبعة في عام واحد، فرثاهم في قصيدة عدت من أجود شعر الرثاء، بل جعلها أبو الخطاب القرشي في جمهرته أول قصائد الرثاء، فقدمها على مرثية الغنوي، وأعشى باهلة، وعلقمة وأبي زبيد الطائي، ومتمم بن نويرة، ومالك بن الريب. وعد أ. أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون [محققا المفضليات]هذه القصيدة في الذروة العليا من الشعر .[٢٤]

جاء صدر القصيدة ردا على امرأة تسائله عن شجونه وأرقه، فيروي لها حزنه وألمه مخاطبا نفسه، وكأنه يبحث عن العزاء:

---

[٢٢] ثقافة الناقد الأدبي: د. محمد النويهي، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣٧٦ .
[٢٣] خزانة الأدب: البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م. ج١٢/ ٨٩
[٢٤] تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول): د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٨، ص١٨٧.

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع والـــدهر لـــيس بمعقـــب مـــن يـــجزع
قالـــت أميمـــة مـــا لجســـمك شـــاحبا مـــنذ ابتـــذلت ومثـــل مالـــك ينفـــع
أم مـــا لجنبـــك لا يلائـــم مضـــجعا إلا أقـــض عليـــك ذاك المضـــجع؟

ثم يفصح عما أرقه، وعن سبب شجوه:

أودى بنـــي فـــأعقبوني حـــسرة بعـــد الرقـــاد وعبـــرة مـــا تقـــلع
ســـبقوا هـــواي وأعنقـــوا لهـــواهم فتخرمـــوا ولكـــل جنـــب مصـــرع

فإنها حسرتي لفراق أبنائي، حسرة تتجدد وعندما يجن الليل يطول السهر، وتتسابق الدموع، لقد ماتوا قبلي وكم كنت أتمنى أن أموت قبلهم! لكنهم تسابقوا للموت، وأخذهم واحدا واحدا، رغم أن الموت نهاية كل حي. ولكن كيف حالي بعد موتهم؟

فغبـــرت بعـــدهم بعـــيش ناصـــب وإخـــال أنـــي لاحـــق مســـتتبع

وبقيت حياتي بعدهم شقاء وتعب، وأظن وهو ظن بمثابة اليقين بأني سأتبعهم. وتنداح دائرة تأملاته، وتنضج فكرة الموت والحياة في فكره ليخرج لنا بهذه الفلسفة الراقية التي تصور مدى حرصه على الدفاع عن أولاده إزاء أي ضرر إلا أن الموت له شأو آخر:

ولقـــد حرصـــت بـــأن أدافـــع عـــنهم فـــإذا المنيـــة أقبلـــت لا تـــدفع
وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

ما أعجب هذا التشبيه للموت! إنها صورة بشعة؛ إذ ينقلب الموت لحيوان مفترس لا غالب له، فإذا أنشب أظفاره لا تنفع هناك تعويذة أو تميمة تصد الشر، وتوقف الموت. والقصيدة لوحة فنية متعددة المشاهد، وفي كل مشهد فكرة تتوافق وتلتئم مع الجو النفسي العام للقصيدة، وتكاد تمتزج مراحل الرثاء الثلاثة الندب والتأبين والعزاء بحيث لا نفصل بينها:

كـــم مـــن جميـــع الشـــمل ملتـــئم الهـــوى كـــانوا بـــعيش نـــاعم فتصدعـــوا
فلـــئن بهـــم فجـــع الزمـــان وريـــبه إنـــي بـــأهل مـــودتي لمفجـــع
والـــدهر لا يبقـــى علـــى حدثانـــه جـــون الســـراة لـــه جدائـــد أربـــع

ولكل شاعر طريقته وأسلوبه في التفكير والتعبير عن تجربته الخاصة، وإن التقى مع آخرين. وقد قيل عند العرب: "كل بلاء عند لاقيه أوجع"؛ لذلك نحن نتذوق الفن وحلاوة التجربة الإنسانية رغم مرارتها مع الشاعر، ولا تغنينا هذه التجربة عن الأخرى فابن الرومي له مذاق خاص يرضي الشعور والعقل والوجدان، والخنساء تحتاج ذائقة فريدة رقيقة رقة عاطفتها، وعذوبة

تجربتها، وأبو ذؤيب عبر عن الثكل بأسلوبه الخاص، ولكل واحد من هؤلاء تصور معين لا يغني عن الآخر، نتدرج معه مرحلة فمرحلة حتى نصل إلى الرضا الفني الذي نتغياه من وراء معايشة الفن.

ويبقى الاعتقاد بأن رثاء الأبناء هو من أشد أنواع الرثاء حرارة في العواطف، وأكثرها شجوا وأمرها تفجعا، ربما لما ينطوي عليه الابن والابنة من منزلة تحمل الترقب والانتظار لمستقبل واعد، وربما لتعهد الوالدين برعايته حتى يكبر، وفي كل يوم تشرق فيه الشمس ينمو كما تنمو النبتة الصغيرة والبرعم الضعيف، وينمو الحلم معه، فإذا ما حل مكروه يمسه غادر الأمن النفس، وهجر الابتسام الشفاه، فكم كانت الحياة سلسة متناغمة جميلة به! وكم كانت الآمال حافلة بوجوده! والآن كل هذا رحل تلك الساعات والأيام والسنون رحلت معه وتركت بصمة غزيرة طبعت على القلب، وارتسمت بالذاكرة، فمن أين نأتي بزمن آخر وعمر آخر وبداية أخرى؟

فإن بكاءنا من نحب لا يقتصر على تحسرنا لفقده، بل نحن نبكي نفسنا المتعبة، نبكي أمانينا العريضة التي كنا نتطلع لتحقيقها، نبكي الإعياء والنصب حين يمرض ورأسنا يتدلى نرقب شفاءه، نبكي أنفاسا كانت تشمه، وأحضانا كانت تضمه، وفرحة لأول ساعة قدم بها للدنيا، نبكي تطاول الأمل وخيبة الرجاء فيه التي على أثرها خابت مساعينا، وتبدلت معالم حياتنا.

المبحث الرابع: رثاء المدن.

عرف الأدب العربي فيما عرف رثاء المدن، معرفة خاصة، فقد عرفه غرضًا أدبيا في شعره ونثره. وهو لون من التعبير، يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة. وهذا النوع من الرثاء لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها، حين يصيبها الدمار والتخريب، ولكنه يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك تارة، والعصور تارة أخرى. بل قد يرثي الدولة بأسرها؛ كما حدث ذلك في الأندلس. وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن شعرا، أكثر من تميزه في النثر.

ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة؛ ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإذا ألم بمدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام عابر. وما كان بكاء الجاهلي على الربع الدارس والطلل الماحل إلا وميضا وأثرا لهذا اللون من الشعر ولهذه العاطفة المعبّرة عن درس المكان وخرابه.[٢٥]

---

[٢٥] دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٠م. ص ٢٠١

وعرف المشرق العربي قدرا من هذا الرثاء شعرًا إلا إنه كان أقل مما جاء في العصر الأندلسي،[٢٦]، [٢٧] عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخًا صالحا ليعيثوا فسادا ودمارا.

ولقد أبدع ابن الرومي في رثاء المدن إبداعه في رثاء الأبناء حين هجم صاحب الزنج بجموعه على مدينة البصرة، وأنزل بها النهب والسلب والحرق والقتل:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ما حل بالبـ صرة من تلكم الهنات العظام؟
أي نوم من بعد ما انتهك الزنـ ج جهارا محارم الإسلام؟

هذا هو ابن الرومي شاعر ينزع للواقعية نزعا؛ إذ بدأ قصيدته بالحديث عن لذيذ النوم الذي هجر مقلتيه إثر الاعتداء على حبيبته " البصرة "، ولم ينف النوم؛ إذ وصف حزنه إنما القلق والألم على ما أصاب البصرة جعلاه يفقد لذاذة النوم والهدوء، وهو على ما عهدنا منه لا يبالغ ولا يدعي شعورا مناقضا، بل يصف وإذا وصف صدق. ما حدث للبصرة لا يقوم في الأوهام:

إن هذا من الأمور لأمر كاد أن لا يقوم في الأوهام
لرأينا مستيقظين أمورا حسبنا أن تكون رؤيا منام

ثم يلتفت إلى قائد الزنج ليصب عليه اللعنات:

أقدم القائد اللعين عليها وعلى الله أيما إقدام
وتسمى بغير حق إماما لا هدى الله سعيه من إمام

ولكنه سرعان ما يرجع للحديث عن البصرة وهو محروق الفؤاد، فيخاطبها بلهفة:

لهف نفسي عليك أيتها البـ صرة لهفا كمثل لهب الضرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ رات لهفا يعضني إبهامي
لهف نفسي عليك يا قبة الإسـ لام لهفا يطول منه غرامي

لم تعد البصرة مدينة يعيش فيها، بل حبيبة مغرم به:

---

[٢٦] يراجع: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٨م. ج٣٥٢/٤

[٢٧] ويراجع: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ط١، ١٩٧٩م. ج١ /٨٧

لهـف نفسـي عليـك يـا فرضـة البـ ـلدان لهفـا يبقـى علـى الأعـوام
لهـف نفسـي لجمعـك الـمتفاني لهـف نفسـي لعـزك المستضـام

فإن هذه الأبيات السابقة (تصور حال الإنسان الذي ينفجر باكيا، ثم يقول كلاما عاما متشنجا، ثم بعد أن تنجلي عنه غمرة البكاء يبدأ في سرد قصة ما يبكيه).[٢٨]

دخلوهـا كـأنهم قطـع الليـ ـل إذا راح مدلـهم الظـلام
طلعـوا بالمهنـدات جهـرا فألقـت حملهـا الحـاملات قبـل التمـام

ويستخدم " كم " الخبرية التي تدل على الكثرة، وعدم القدرة على الإحصاء:

كـم أغصـوا مـن شـارب بشـراب كـم أغصـوا مـن طـاعم بطعـام؟
كـم ضـنين بنفسـه رام منجـى فتلقـوا جبينـه بالحسـام
كـم أخ قـد رأى أخـاه صـريعا تـرب الخـد بـين صـرعى كـرام
كـم أب قـد رأى عزيـز بنيـه وهـو يـعلى بصـارم صمصـام
كـم مفـدى فـي أهلـه أسلمـوه حـين لـم يحـمه هنالـك حامـي
كـم رضـيع هنـاك قـد فطمـوه بشـبا السـيف قبـل حـين الفطـام
كـم فتـاة بخـاتم الله بـكر فضـحوها جهـرا بغيـر اكتتـام
كـم فتـاة مصـونة قـد سـبوها بـارزا وجـهها بغيـر لثـام
صـبحوهم فكـابد القـوم مـنهم طـول يـوم كأنـه ألـف عـام

ويقف على شعوره إزاء ما حدث للبصرة واصفا:

مـا تـذكرت مـا أتـى الـزنج إلا أضـرم القلـب أيمـا إضـرام
طلعـوا بالمهنـدات جهـرا فألقـت أوجعتنـي مـرارة الإرغـام

(هذه القصيدة المؤرخة تأريخا فنيا لفتنة حدثت قد ألقت أكثر من ضوء على طبيعة هذه المأساة، وطريقة التفكير العربي في معالجة الأحداث، وعلى منشآت قائمة كنا نحسبها من منجزات الحضارة الحديثة، وعلى الثقافة الرحبة لابن الرومي وبخاصة الثقافة الدينية، كما أطلق عددا من الصور القائمة المتتابعة التي تعتمد على البصر في قدرة مذهلة، وبهذا يكون بهذه القصيدة قد حلق في آفاق جديدة في الشعر العربي).[٢٩]

---

[٢٨] دراسات في النص الشعري، العصر العباسي، د. عبده بدوي، المملكة العربية السعودية، الرياض، مطابع الفيصل التجارية، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ط٢، ١٤٠٥ / ١٩٨٤ م، ص ١٦٧.
[٢٩] المرجع السابق: ١٧٥

ولا يخفى علينا صيغ التعبير التي اعتمد عليها ابن الرومي تتردد بين الاستفهامات البلاغية التي توحي بالتعجب والحيرة، وبين التلهف والحسرة، وبين كم التي تخدم صور التعذيب المختلفة مما يشي بطبيعة الحالة النفسية المتوترة التي يعانيها، والوحدة العضوية والموضوعية التي تتمتع بها القصيدة.

المبحث الخامس والأخير: ألوان أخرى من الرثاء.

وقف د. شوقي ضيف على ألوان الرثاء وهي ثلاثة: الندب والتأبين والعزاء. أما الندب فهو: النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة، وقد عرفه العرب مذ العصر الجاهلي في مآتمهم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت، واستمر في الإسلام من غير لطم ولا خمش للوجوه.[٣٠]

وقد جرت على ألسنة النساء الندابات بالجاهلية الأشعار التي تعبر عن عمق حزنهن، وقد انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر مع الزمن، بل أصبح هناك محترفون ومحترفات يعولون في المآتم بأشعار خاصة بهم.

وقد يكون الندب عند بكاء الإنسان نفسه وقت الاحتضار، أو أهله وأقاربه، أو ندب عزيز لديه كندب الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد تطور لندب البلدان والدول، ويندرج تحت هذا اللون معظم الرثاء مثل ندب جليلة السابق.

أما التأبين فهو: الثناء على الشخص حيا أو ميتا ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط، وتعداد فضائلهم، وذكر محامدهم مثل تأبين الخلفاء والوزراء والأشراف والأجواد والقواد، والعلماء والأدباء.

ومعنى العزاء هو: الصبر، ثم اقتصر استعماله على الصبر في مصيبة الموت لأن سنة الحياة تقتضي أن نعيش فيها سعداء أم أشقياء، وأنا عنها لراحلون طالت المدة أم قصرت، فالموت نهاية كل حي، وغاية ينتهي إليها المخلوقات؛ لذلك اتخذ الإسلام من الموت موقفا رائدا وجه فيه الإنسان إلى كيفية التعامل مع مصائب الدنيا وويلاتها بنفس مذعنة، وثبات راسخ، فقال نبي الله ρ: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى "؛ لأن مآل الإنسان لذلك لا محالة، فلا مجال للاعتراض ولا التبديل ولا التغيير، وطالما الأمر كذلك فمن باب أولى أن يظهر استسلامه مذ البداية أحرى للحصول على الأجر والمثوبة.

---

[٣٠] فنون الأدب العربي (٢) الفن الغنائي الرثاء: د.شوقي ضيف، ص١٣

وللباحث تحفظ شديد على تقسيم د. شوقي ضيف؛ لأن الحقيقة أننا لا نستطيع الفصل بين ألوان الرثاء الثلاثة، فقصيدة الرثاء تقوم عليهم جميعا؛ إذ يصور الشاعر في قصيدة الرثاء فجيعته على المتوفى، وأثر فراقه، ولوعة الحزن لفقده، وقد يعرض لمناقب المتوفى وصفاته، ثم يتأسى بمن سبقوه في ذلك متخذا من الحكمة والمواعظ سبيلا لتهدئة روعه، وجلاء حزنه.

ولعل طبيعة الدراسة هي التي دعت د. شوقي لهذا التقسيم. وقد يلتقي الرثاء بالمديح والوصف، وهذا أمر بدهي، فالشاعر حين ينظم قصيدة رثاء في أحد أصدقائه يتناول حتما ذكر صفاته، ووصف أخلاقه مثل رثاء أوس بن حجر، وهو من فحول شعراء الجاهلية لفضالة بن كلدة؛ إذ كانت بينهما علاقة وثيقة، فرثاه بعد موته بقصيدة رائعة أظهر فيها عاطفته القوية إزاء فضالة، معددا صفاته العظيمة من كرم وشجاعة وحزم، ويركز على كرمه وقت المجاعة والشدة حين يحرص الناس على ما يملكون مخافة الحاجة، فيبرز عطاءه للفقير والمحتاج، فيبدأ بمخاطبة نفسه:

أيتهـــا الـــنفس أجملـــي جزعـــا إن الـــذي تحـــذرين قـــد وقعـــا

ويمضي سريعا لتعداد محاسن المتوفى:

إن الـــذي جمـــع الســـماحة والنـــ ـــجدة والحـــزم والقـــوى جمعـــا
الألمعـــي الـــذي يظـــن لـــك الظـــ ـــن كـــأن قـــد رأى وقـــد ســـمعا
والمحلـــف المتلـــف المـــرزأ لـــم يمنـــع بضـــعف ولـــم يمـــت طـــبعا
والحـــافظ النـــاس فـــي تحـــوط إذا لـــم يرســـلوا تحـــت عائـــذ ربعـــا

ثم يقف على موته:

أودى وهـــل تنفـــع الإشـــاحة مـــن شـــيء لمـــن قـــد يحـــاول البـــدعا؟
ليبكـــك الشـــرب والمدامـــة والـــ فتيـــان طـــرا وطـــامع طمعـــا
وذات هـــدم عـــار نواشـــرها تصـــمت بالمـــاء تولبـــا جـــدعا
والحـــي إذ حـــاذروا الصـــباح وقـــد خـــافوا مغيـــرا وســـائرا تلعـــا[٣١]

ومن الطريف ندب الشعراء أنفسهم إذا أحسوا بدنو أجلهم، ووصفهم لما يصنع أهلهم بعد الموت، فاسمع حاتم الطائي، وهو يتخيل نهايته في قصيدة يوضح فيها فلسفة الكرم محاولا إقناعنا برأيه:

---

[٣١] الروائع ص٢٨٨.

أمـــاوي مـــا يغنـــي الثـــراء عـــن الفتـــى إذا حشـــرجت يومـــا وضـــاق بهـــا الصـــدر
إذا أنـــــا دلانـــــي الـــــذين أحـــــبهم لملحـــــودة زلـــــج جوانبـــــها غبـــــر

ويرسم صورة غاية في الإتقان حين يقول:

وراحـــوا عجـــالا ينفضـــون أكفهـــم يقولـــون: قـــد دمـــى أناملنـــا الحـــفر
أمـــاوي إن يصـــبح صـــداي بقفـــرة مـــن الأرض لا مـــاء لـــدي ولا خمـــر
تـــرى أن مـــا أهلكـــت لـــم يـــك ضـــربي وأن يـــدي ممـــا بخلـــت بـــه صـــفر[٣٢]

فإنه يرى نهايته فيحاول أن يجعل لها ما يشرفها متخذا هذه الصورة سبيلا من سبل الإقناع لكرمه وسخائه مع الناس. وشاعر آخر يصف صنيع أهله بعد موته من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن ثم اللحد والدفن:

هـل للفتـى مـن بنـات الـدهر مـن واق أم هـل لـه مـن حمـام المـوت مـن واق؟
قـد رجلـوني ومـا رجلـت مـن شـعث وألبســـوني ثيابـــا غيـــر أخـــلاق
وأرســـلوا فتيـــة مـــن خيـــرهم حســـبا ليسـندوا فـي ضـريح التـرب أطبـاقي[٣٣]

ولا نكاد نتصفح العصور الأدبية حتى نجد العصر العباسي وقد نشط الرثاء فيه نشاطا واسعا؛ إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبّنوه تأبينا رائعا، وقد صوروا في القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش في وفاتهم، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا، وحقا رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيدا يضرم الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت.

وصور شعراء بني العباس كثيرا من العواطف الدقيقة، بل لا نبعد عن الصواب حين نزعم بأنه لم يتركوا شيئا فقدوه إلا ورثوه، مثل: رثاء القميص، ورثاء القط، ورثاء البصر، ورثاء القلم، ورثاء المدن، وهذا يدل دلالة قوية على دقة مشاعرهم، وعمق ولائهم، ورهافة حسهم، وعلى مدى تأثرهم بالفكر الحضاري الجديد الذي دعت إليه امتزاج الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية مما طبع الشعر بطابع خاص هيأت له الكتب التي ترجمت عن الهنود والفرس واليونان، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء، هذه المحاورات التي دفعت الشعراء دفعا إلى التفكير المتصل وإلى العلم والمعرفة، بل أصبح الشاعر ملتصقا بالعلماء يحاور ويسأل ويجادل وإلى ذلك يشير بشار بن برد:

---

[٣٢] الروائع ص ٤٨١.

[٣٣] فنون الأدب العربي (٢) الفن الغنائي الرثاء: ص ٣٠.

شـــفاء العمـــى طـــول الســـؤال وإنمـــا دوام العمـى طـول السـكوت علـى الجهـل
فكـــن ســـائلا عمـــا عنـــاك فإنمـــا دعيـــت أخـــا عقـــل لتبحـــث بالعقـــل

فها هو أبو يعقوب الخريمي يفقد بصره حين طعن في السن يصور شعوره ويبكي بصره:

أصـــغي إلـــى قائـــدي ليخبرنـــي إذا التـــقينا عمـــن يحيينـــي
أريـــد أن أعـــدل الســـلام وأن أفصـــل بـــين الشـــريف والـــدون
أســـمع مـــا لا أرى فـــأكره أن أخطـــئ والســـمع غيـــر مـــأمون
لله عينـــي التـــي فجعـــت بهـــا لـــو أن دهـــرا بهـــا يـــواتيني
لـــو كنـــت خيـــرت مـــا أخـــذت بهـــا تعميـــر نـــوح فـــي ملـــك قـــارون[٣٤]

ومن آثار الشعر الجميلة أنه لا يقتصر على عرض التجربة الإنسانية، وخلق التعاطف بين المبدع والمتلقي، بل يقدم لنا رؤية شاملة، وفلسفة راقية، مع حسن تدبير، ولطافة تعبير، فيسهم في بناء فكرنا من جديد، ويحدد موقفنا من الأحداث والأشخاص، فنترقى بسلوكياتنا نحو الأفضل، فكم من مفاهيم عدلت! وكم من أوضاع غيرت! وكم من أقوال هذبت من جراء قصيدة شعر صادقة لامست القلوب! فصغت الآذان، ورهفت الأحاسيس، وبلغت شأوا عظيما في تبديل وتغيير مجرى حياتنا.

لقد طبع الإنسان على التكيف النفسي والاجتماعي وإن تفاوت الناس في ذلك والتكيف ببساطة شديدة هو حسن التعامل مع نائبات الزمن، وتغير الأحوال والثبات على الدين؛ لذا كان رسول الله ρ يدعو ربه بالثبات على الدين، وينصح المسلمين بالصبر على مصائب الدنيا، فلا مناص لهم عن مواجهتها والإذعان لها، وقد عنى الإسلام عناية فائقة بتهذيب النفوس وتوجيهها قبل علوم العصر الحديث مثل علم النفس والاجتماع.

وجاء أثر الإسلام واضحا جليا في الشعر العربي لا من حيث ألفاظه وعباراته فحسب، بل من حيث معانيه وصوره ونظرياته، فاستمع إلى رائعة من روائع ابن الرومي التي كشفت عن أهمية التكيف، وقد سماه بـ [الألفة] سجل فيها رؤيته متخذا من التعليل والاستقصاء سبيلا من سبل الإقناع وحسن التأسي وهو يعزي القاسم عن مولود له فيقول:

مضـــى ابنـــك والآمـــال تكنـــف نعشـــه وتبكيـــه للمعـــروف وهـــي حواشـــد
ولـــو عـــاش عاشـــت فـــي ذراه وأورقـــت لهـــا مـــن عطايـــاه غصـــون موائـــد
فمـــا عـــندنا إلا شـــؤون حوافـــل تجـــود عليـــه أو عيـــون سواهـــد

[٣٤] تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول): د. شوقي ضيف، ص١٨٨.

وإلا تأســـــينا مـــــرارا وقولنـــــا: هـــو الـــدهر لا تبقـــى عليـــه الجلامـــد

ويحث القاسم على الصبر مذكرا له بحال الزمان بأسلوب الحكمة:

ومـــا ابنـــك إلا مســـتعار رددتـــه وكـــل عـــواري الزمـــان ردائـــد
ومـــا ابنـــك إلا وافـــد نحـــو ربـــه ومـــن أوفدتـــه عزمـــة الله وافـــد
فإمـــا اشـــتراه الله منـــك فمـــا اشـــترى ضـــنين بإرغـــاب ولا بـــاع زاهـــد
فصـــبرا فـــإن الصـــبر خيـــر مغبـــة وهـــل مـــن محيـــد عنـــه إن حـــاد حـــائد؟

وكان من الممكن أن يكتفي ابن الرومي بهذه الأبيات لشمولها، وتنوع أفكارها لكنه أبدا لا يفتأ عن غرامه بالاستقصاء ليقدم التاريخ من زاوية أخرى:

ولا تحســـبن الـــرزء لـــم يـــك واقـــعا ولا تعتقـــده طارفـــا فهـــو تـــالـــد
ونحـــن بـــذور الـــدهر والـــدهر زارع ونحـــن زروع الـــدهر والـــدهر حاصـــد

ولا يعتقد أحد أنه الوحيد الذي ابتلي برزء عظيم؛ إذ إحساس المشاركة مع الآخرين يولد إحساسا بالرضا، وتقبلا لما يحدث:

غدا الموت والسلوان حتما على الورى كـــلا ذا وهـــذا للفـــريقين راصـــد
فـــلا تجعلـــن المـــوت نكـــرا فإنمـــا حيـــاة الفتـــى ســـير إلـــى المـــوت قاصـــد

وابن الرومي بعمق إحساسه ودقته وعظمة مشاعره ورهافة حسه يستشرف المآسي الإنسانية ويتطلع إلى حل مجاهلها، فتشرق له شمس الحقيقة، حقيقة الحزن في قلوبنا، ها هو يتحدث عن الحزن لا حديثا سطحيا مبتسرا، بل حديثا تمتزج فيه مرارة التجربة بقدرة التأمل المسؤول:

ولا تحســـبن الحـــزن يبقـــى فإنـــه شـــهاب حريـــق واقـــد ثـــم خامـــد
ســـتألف فقـــدان الـــذي قـــد فقدتـــه كإلفـــك وجـــدان الـــذي أنـــت واجـــد

فإنها الألفة التي تتوالد إثر الصدمة "صدمة الفقد"، والصدق الفني والتعبيري عن التجربة، وهذا ملمح من ملامح التجديد في الشعر العربي على المستويين الشكلي والموضوعي؛ إذ تتفق نظريات علم النفس الحديث مع ما ذهب إليه ابن الرومي في تحليله وتعليله، والذي يترقى بنا وبمشاعرنا لاستجلاء المحن واستشفاف كنه الوجود:

ومـــن لـــم يـــزل يرعـــى الشـــدائد فكـــره علـــى مهـــل هانـــت عليـــه الشـــدائد

هذا هو نتاج الإيمان وثمرة التأمل الواعي.

وللشـــــر إقـــــلاع وللهـــــم فرجـــــة وللخيـــــر بعـــــد المؤيســـــات عوائـــــد

مـا أروع! ومـا أعظـم هـذه الـنفس السـامية التـي تتعـالى رغـم بؤسـها علـى كـل الظـروف والإحباطات! ما أجمل أن نرى النور رغم اشتداد الظلمة! هذا هو ما ننتظره من المبدع أن يصيغ عواطفنا من جديد، أن يغرس قوة الصمود في سلوكنا وعقيدتنا، أن ينشيء من العدم وجودا، ومن اليأس أملا، ومن الحياة أنشودة عذبة تتجاوز السنين والخطى والشدائد.

ويطـول الحـديث عـن الرثـاء ويتسـع مجـال الإبـداع فيـه اتسـاعا يسـتوعب تجـارب الأدبـاء، وطرقهم التعبيرية والتصويرية المختلفة، وهذه الدراسة ما هـي إلا معايشـة صـادقة لقصـائد هذبها الألم، وتملكها الشعور المفعم بالصدق، وتناقلتها القلوب قبل الألسن، وظلت تحمل خصائص الخلود والبقاء لأجيال وقرون.

نتائج البحث:

وبعد مطالعة الرثاء في عصوره الأدبية، ومجالاته من رثاء أزواج، ورثاء أبناء، ورثاء مدن، وغيرها من مجالات الرثاء، فقد استقرت قناعة الباحث على عدة حقائق ونتائج، ألا وهي:

- يلتقي فن الرثاء بفنون كثيرة في انسجام وتكافؤ غير دخيل وغير مفتعل، بل يكتنفها في عناق نسيجي متناغم، فالوصف والمديح والشكوى توأم الرثاء ولغته لا يكتمل التعبير ولا تكتمل أدواته إلا به.
- يعتمد أسلوب الرثاء على صيغ تكاد تتكرر عند كل مبدع سواء أكان امرأة أو رجلا مثل: الاستفهام الذي لا ينتظر جوابا؛ إذ فرضته طبيعة العاطفة، فجاء استفهاما إنكاريا أو تعجبيا، أو دلالة على الذهول والحسرة، ومثل: كم الخبرية التي تدل على الكثرة، وعدم القدرة على الإحصاء، ومثل: صيغ المبالغة التي تعلو بنعت المرثي وبصفاته، ومثل: التأوهات والزفرات التي تثير كوامن الحزن والأسى.
- من سمات الرثاء البارزة أنه يوجب صهر التجربة الشعرية لتذوب في بوتقة الحكمة وهي خلاصة الرؤية في الموت والحياة.
- توافر الوحدة الفنية في الرثاء رغم تداخل الموضوعات الشعرية.
- سهولة الألفاظ والمعاني وقربها من تجاربنا اليومية أو الحياتية.
- تعاطف الكائنات والجمادات والطبيعة مع الشاعر تعاطفا ينم عن حس فني راقٍ وعن مدى وعي المبدع بتجربته.
- وضوح أثر القرآن في قصيدة الرثاء وضوحا بارزا.

مصادر البحث ومراجعه:

١. أحلى ما قيل في الرثاء: إيمان البقاعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٢. تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي): د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٩، (د.ت).
٣. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول): د. شوقي ضيف، دار المعارف، ط ٨، (د.ت).
٤. تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ط)، ٢٠٠٥م.
٥. التعازي والمراثي، المبرد، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٦. ثقافة الناقد الأدبي: د. محمد النويهي، مكتبة الخانجي، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٦٩.
٧. خزانة الأدب: البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
٨. دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، د.الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٨٠م.
٩. دراسات في النص الشعري، العصر العباسي، د. عبده بدوي، المملكة العربية السعودية، الرياض، مطابع الفيصل التجارية، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ط٢، ١٤٠٥ / ١٩٨٤ م.
١٠. ديوان ابن الرومي: جمع وتحقيق: أحمد حسن بسبح، دار الكتب العلمية، (د.ط)، ٢٠٠٢م.
١١. ديوان الخنساء: دار المعرفة ، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
١٢. ديوان الخنساء: دار صادر، بيروت، (د.ط) . (د. ت).
١٣. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ط١، ١٩٧٩م.
١٤. الروائع من الأدب العربي، العصر الجاهلي: إشراف: د. يوسف خليف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.
١٥. رياض الأدب في مراثي شواعر العرب: الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، ١٨٩٧.
١٦. طبقات فحول الشعراء: ابن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).
١٧. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
١٨. فنون الأدب العربي (٢) الفن الغنائي الرثاء: د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٣، (د.ت).
١٩. الكامل في الأدب: العباس محمد أبو يزيد المبرد، تحقيق: د. محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، (د.ت).

٢٠. المستطرف من كل فن مستظرف: الإبشيهي، تحقيق: إبراهيم أمين، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).
٢١. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب: الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، ١٩٦٨م.